الآداب

شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص.ب : ٤١٢٣ بيروت ـ تلفون : ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle

Beyrouth - Liban

B. P. : 4123 - Tél. : 232832

صاحبها ومديرها المسؤول

الدكتور سهيل إدريس

Propriétaire - Directeur

SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير

عايدة مطرجي إدريس

Secrétaire de rédaction

AIDA M. IDRISS

*

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ـ بناية مروة

الاشتراكات

في لبنان : ١٢ ليرة ■ في سوريا ١٥ ليرة
في الخارج : جنيهان استرلينيان او ستة دولارات
في أميركا : ١٠ دولارات ■ في الارجنتين ١٥٠ ريالا
الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ليرة لبنانية أو ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما
حوالة مصرفية او بريدية

الاعلانات
يتفق بشأنها مع الادارة

العدد الثاني ـ شباط (فبراير) ١٩٦٦ ـ السنة ١٤

« ١ »

حين همّ ابراهيم بمغادرة بيت عمتي ذلك المساء ، قال لي بعبارة حاسمة :

ـ سأضطر الى التغيب بضعة ايام عن طولكرم ، فاعذريني اذا انقطعت عنك هذه الفترة .

وفاجأني النبأ كما ادهستني الصيغة الجافة التي صب فيها . وحدقت في عيني ابراهيم اسألهما تفسيرا ، ولكني رأيته يغضي ، ثم ينفتل وهو يمد لي يده مصافحا ، على جاري عادته كلما قابلني او تركني ، فاذا هي جامدة باردة كما لم احسها من قبل قط . ووددت ان استبقي لحظات هذه اليد التي ألفتها ، ولكن لهجة ابراهيم وانغلاق قسماته لم يشجعاني على ذلك ، فتركتها تتراخى ، وتمتمت شفتاي في استسلام :

ـ مع السلامة ، ابراهيم ..

ولاحظت آنذاك انه لم يتلفظ حتى باسمي ، فبدا اسمه غريبا لي اذ نطقت به ، كأني كنت الفظه للمرة الاولى .

* * *

الليل والأسلاك

قصة بقلم الدكتور سهيل ادريس

* * *

واذ غاب عني ، عدت الى غرفتي وانا أحس الاضطراب يساورني من جديد ، وطفرت الى ذهني جميع علامات الاستفهام التي كنت احاول ان انيمها منذ أيام : ما بال ابراهيم ؟ وما الذي يغيره منذ حين ؟ ولماذا ارى شعاع الود والصداقة ينطفيء في عينيه ليحل محله نظر ساهم تقطعه انتفاضات مفاجئة وعبارات صارمة ؟

وبدأت اوقن اني كنت ازعجه بحديثي الذي لا ينقطع عن سعد ، وباسئلتي المتدافعة : ماذا تظن قد حل بسعد ؟ أتعتقد ان سعد سينبثق ذات لحظة امام أعيننا من وراء الحدود ؟ اتظن انه قد نجا في تلك الليلة من رصاص العدو ، وعاد الى « عين بارد » في انتظار اللحظة المناسبة للحاق بي ؟ ولكن يا ابراهيم ... اسمع يا ابراهيم ... قل لي يا ابراهيم ... لماذا تأخر سعد ؟ انني خائفة على سعد !

وللمرة الاولى احسست بان اسم خطيبي الغائب يصبح ثقيلا ، كريه المذاق في فمي .. وتساءلت كيف لم افطن قبل الآن الى انه ربما كان يخلف الضيق والنفور في

نفس ابراهيم ؟

بيد اني عدت اتساءل : ألم يكن ابراهيم اعز صديق لسعد ، واوفى رفيق ؟ وكيف استطيع ان انسى العبارة التي رددها لي سعد في تلك الليلة المشؤومة التي فرقت بيننا : « اذا تمكنت يا سميرة من عبور الحدود بدوني ، فلا تخافي شيئا : ابحثي عن ابراهيم في طولكرم تجديه في انتظارك ، وسيحافظ عليك كأخته ريثما اتمكن من اللحاق بك . ان ابراهيم صديقي واخي ورفيق دربي » .

ولم أكن بحاجة الى كلام سعد لاعرف هذه الحقيقة : فلقد عشنا ، نحن الثلاثة ، اربعة اعوام كاملة معا في عين بارد بعد نزوحنا عن حيفا . وكان ابراهيم صديقنا الاوفى ، وشاهد حبنا الامين ، بل كان أول من اقرنا على عزمنا ان نتزوج في الارض الحرة ، اذا طال الامد على تحرير الارض المحتلة .

وانى لي ان انسى تلك الساعة التي لقيت فيها ابراهيم ؟

كنت قد قضيت نهارين بعد ان اهتديت الى بيت عمتي التي آوتني عندها ، وانا ابحث عنه ، وأسأل المارة في شوارع طولكرم ، والباعة والتجار في السوق ، حتى دلني احدهم ذات مساء على عنوان غرفته . وحين طرقت عليه الباب ، انعقد لسانه لحظات اذ رآني ، ثم نطق باسمي واتبعه باسم ابراهيم مرتين وتلانا ، قبل ان يكب على يدي فيقبلها ، مدركا ان ابراهيم لم يستطع ان يتسلل معي . وحين رفع الي عينيه ، رأيت فيهما الدموع ، فارتعشت تأترا ، وكدت آخذ في يدي هذا الوجه الاسمر الجميل الذي اعرفه منذ وقت طويل ، فأقبله واضمه الى صدري.

ومنذ ذلك اليوم ، وانا القى ابراهيم كل مساء في بيت عمتي ، بعد عودته من عمله ، وهو لا ينفك يطالبني بأن اروي له حكاية تسللنا من الارض المحتلة ، ويستوقفني عند ادق التفاصيل . وكان يرجوني ان اعيد على سمعه بصورة خاصة وصف الموقف الذي يصور سعد وهو يبتهل الي ان اسرع في الفرار ، وان اضاعف القدرة على الزحف نحو الحدود حين تبين ان العدو قد شعر بنا فبدأ يطلق نيران رشاشاته في اتجاهنا ، على غير هدى . وكان لا بد لسعد آنذاك من ان يتراجع دوني ، وهو يطلق بين الفينة والفينة طلقة من مسدسه ، ثم ينبطح ارضا لينقي رد رشاشات العدو . ولولا اننا كنا قد تعاهدنا ان يبذل كل منا قصارى جهده للنجاة بنفسه اذا اضطر الآخر الى التوقف او التراجع او اصيب بأي شيء ، لآثرت ان ابقى معه والقى المصير الذي يلقاه . بيد اني ظللت متفائلة فترة طويلة وأنا اسمع صوت الطلقات يتبادلها مع العدو ، بينما بقيت ازحف عبر بيارات البرتقال ، واقطع مراحل الدرب الذي كنا قد قضينا اسابيع عديدة ونحن نتعرف الى معالمه تمهيدا للفرار .

كان ابراهيم يصغي الي بشغف ويطرح علي اسئلة لا تنتهي ، كأنما كان يتذكر قصة فراره هو نفسه ، قبل ذلك ببضعة أشهر . وكان يصمت ويغمض عينيه اذ كنت اروي له كيف ظلت رصاصات سعد المتقطعة تتصادى مع رشاشات العدو ، حتى اختلطت علي آخر الامر والتاثت ، عندما بلغت اسلاك الحدود فعبرتها ، ثم ارتميت تحت شجرة ، وانا ارتجف خوفا وبردا ، وبقيت متمددة اكثر من ساعتين بعد انقطاع صوت الرصاص ، اتساءل في هلع وذعر : هل تمكن سعد من النجاة بنفسه والعودة الى القرية ، ام اردته رشاشات العدو ، ام القي القبض عليه ؟ ثم لم يكن لي مناص من ان أسلك الطريق نحو طولكرم بائسة ، باكية ، مريضة .

وكان دأب ابراهيم ان يهدئني ويطمئنني ويدعوني الى الصبر ويذكرني بأن بلاغات العدو وانباء اذاعته لم تورد اسم سعد فيما اوردت من اسماء المتسللين الذين لاقوا حتفهم في اثناء فرارهم . واشهد ان نفسي كانت تطمئن آخر الامر لعبارات ابراهيم ، ويقر بالي ، ويعاودني الامل والتفاؤل بان يكون سعد ما يزال على قيد الحياة ، وان يتمكن ذات ليلة من عبور الحدود .

وكان ابراهيم لايني يردد لي : « صبرا يا سميرة ! صبرا ! لا بد ان يأتي سعد في يوم قريب ، فنحتفل بزواجكما أعظم احتفال ! »

واذن ، ما باله منذ ايام يقف مني هذا الموقف ، ثم يأتي ليبلغني انه سينقطع عن زيارتي ، ولو كان هذا الانقطاع لبضعة ايام فحسب ؟

« ٢ »

تفاقم قلقي بعد انقضاء ثلاثة ايام على غياب ابراهيم ، وامتلأت اضطرابا وضيقا ، وبدأت اشعر ان بيت عمتي سجن صغير كنت اود ان اخرج منه بأي ثمن لامضي فأبحث عن ابراهيم في كل مكان .

وفي اليوم الرابع ، قصدت حانوت السمانة الذي كان يعمل فيه فأخبرني صاحبه ان ابراهيم منقطع عن ارتياده منذ بضعة ايام . ووثب الى شفتي السؤال المخيف : « ماذا ؟ أيكون قد عاد ... فتسلل الى الارض المحتلة ؟ »

وفيما كنت متجهة الى غرفته عند المساء ، جعلت أتذكر اسئلته القلقة حول فراره . كان يقول لي بلا انقطاع : أما كان اجدر بي ان ابقى هناك ؟ اما كان مجرد وجودي يبث بعض الاطمئنان في نفوس الرفاق ؟ ماذا تراهم قد قالوا عني ؟

وكنت اجيبه محاولة ان ارد له اطمئنانه : « ولكنهم يا ابراهيم كانوا يعرفون تمام المعرفة انك كنت هدفا دائما للاحقة سلطات الاحتلال ومراقبتهم وتضييقهم عليك ... وكثيرون هم الذين نصحوك بالفرار ... »

وتذكرت انه قال لي ذات مساء :

ـ لو خطر لكل رفيق هناك يا سميرة ان يسلك

عدد ((الاداب)) القادم يصدر في اواخر شباط (فبراير)

الشعر العربي الحديث

اقوى واروع عدد ممتاز تصدره مجلة « الآداب »
خاصا بالشعر العربي الحديث ، يشارك فيه نخبة من
الباحثين والشعراء بدراسات عميقة وقصائد نموذجية.

احجز نسختك منذ الان

طريق الفرار هربا من الملاحقة وخوفا من الاضطهاد ، من تراه كان يبقى ليؤكد حقنا في البقاء والعودة ؟

فأجبته قائلة :

ــ ولكن شأنك شأن آخر . لقد قررت الفرار ، وشجعناك عليه ، يوم سمعنا ان السلطات كانت تنوي اعتقالك بين ساعة وساعة وزجك في السجن مع المئات من رفاقنا ...

وحدق ابراهيم في عيني ثم قال :

ــ هل تستطيعين ان تؤكدي لي ان السلطات نفسها ليست هي التي روجت هذه الشائعة ؟

قلت في دهشة : ــ ولكن ما غايتها من ذلك ؟

فأجاب : ــ لتحملني على التفكير بالفرار ، فيكون اصطيادي على الحدود ، عند محاولة التسلل ، أيسر واجدى من زجي في السجن بين الرفاق حيث لن أتردد في مواصلة مهمتي بالتحريض وبث روح المقاومة والصمود!

وصمت آنذاك وانا اكاد اؤمن بما ذهب اليه من افتراض ، ثم رأيته يتململ وهو يقول :

ــ ليتني قتلت تلك الليلة على الحدود !

فأرعبتني عبارته وبرقت في عيني صورة خطيبي ، وكأنه يقتل هو نفسه على الحدود ، فأحسست بانهيار في روحي وجسمي ، وقلت وانا اتناول يد ابراهيم ، كأني احاول بها تفادي الانهيار :

ــ لا ... لا تقل هذا يا ابراهيم ..

وللمرة الاولى لمحت ذلك المساء هذا السهوم الذي بدأت الاحظه في عينيه منذ حين ، وتابعت اقول وانا اود ان اخفف عنه ذلك الشعور بالذنب :

ــ ان ذلك ما كان يجديك او يجدينا يا ابراهيم ...

واحسست كفه تضغط على اصابعي فجأة ، فحاولت ان احررها بلطف ، ولكنه تشبث بها ، وسمعته يتمتم باسمي وقد امتقع وجهه ، ولكنه ما لبث ان انتفض في مجلسه واعتذر باضطراب ، ثم قال في تلعثم :

ــ ولكن ... ما الذي افعله هنا الآن ؟

فلم ادرك قصده ، ولم يتح لي ان استوضحه اذ نهض وهو يستأذن بالذهاب .

ذكرت هذا كله وانا احث الخطى الى غرفته ، متفاقمة القلق ، ثم خطرت لي فكرة اشاعت في جسمي رعشة غريبة : « ماذا ؟ أترى ابراهيم يتجنب لقائي الآن ؟ أيكون قد احس بان عاطفة الصداقة التي كان يكنها لي ، بصفتي خطيبة صديقه ، تتحول منذ حين الى عاطفة ... اخرى ؟ اتراه قد بدأ ، انطلاقا من هنا ، يعاني الشعور بالاثم ، ويتجنب لقائي ما وسعه ذلك ؟ »

واحسست بانقباض مؤلم في صدري ، وشعرت بأني عاجزة عن مجابهة هذا الموقف الجديد : اذا كان هذا هو الواقع ، فهل ينبغي أن امتنع عن لقاء ابراهيم ؟

ولكني سارعت اراجع نفسي ، واتهمها بالتعجل في تفسير الوقائع . فما يدريني أن ابراهيم ليس منصرفا الآن الى عمل يستغرق جهده ووقته ؟ ما يدريني انه لا يعقد اجتماعات متواصلة مع شباب المنطقة بقصد التدريب؟ اما كان يشكو طوال الايام الماضية انه مشلول لا يعمل الا ان يؤمن معيشته ؟ الم يقل ، في لقائنا الماضي « ما الذي افعله هنا الآن ؟ » اتراه لم يكن يقصد الى ان عليه ان يقوم بعمل ايجابي على مستوى القضية ، بدلا من هذه الحياة الهينة التي يعيشها ؟

واستعدت بعض هدوئي اذ خطرت لي هذه التساؤلات ، ولكن الاضطراب ما لبث ان ناوشني حين فكرت بان تلك العبارة يمكن أن تفسر تفسيرا آخر ..

ولم اجد ابراهيم في غرفته ذلك المساء ، ولكني حين عدت الى بيت عمتي لمحت في الحديقة شبحا رأيته يسارع فيختفي في ظل جذع شجرة . وبالرغم من ان الظلام كان قد بدأ يتكاثف ، فانه لم يساورني شك في انه كان ابراهيم .

ولم اجرؤ على مناداته . وظللت ساعات انتظر ـ واخشى ـ ان يدق الباب ، ولكني استسلمت للنوم ، اعياء ، من غير ان اسمع طرقا على باب بيت عمتي .

« ٣ »

كان اربعة عشر يوما اخرى قد تصرمت حين عاد ابراهيم الى زيارتي . وقد عشت هذه الايام كلها في تمزق هائل . ولم احاول ان أسأل عنه في المتجر ولا في غرفته، بل لم اكن اجرؤ حتى على الاطلال من نافذة غرفتي لارى ان كان شبحه لا يزال يرود ارجاء الحديقة .

وقد اقبل ابراهيم يبلغني ما كنت اخشاه : انه متسلل هذه الليلة بالذات عائدا الى الارض المحتلة .

وقال لي ابراهيم ان رفاقه هناك اشد حاجة اليه من رفاقه هنا ، وانه يحس بأنه يهدر وقته بلا جدوى ، ويكاد يخون القضية .

واضاف ابراهيم يقول ، بعد لحظة صمت :

ـ تم انني اريد ان ابحث عن سعد يا سميرة .. وانا ارجو ان اجده في عين بارد ، وقد نجا في تلك الليلة، لنقوم مرة ثانية بمحاولة التسلل الى طولكرم . فاذا كتب لنا النجاح ، فسأكون سعيدا جدا بان ابارك زواجكما ...

وكشف لي ابراهيم انه كان ، طوال الايام التي تغيب فيها ، يقصد الحدود كل مساء يتعرف على الارض ، ويرسم الدرب الذي سيسلكه .

وخطر لي ان أسأله لماذا لم يزرنا خلال تلك الايام التي لا بد ان يكون قد عاد فيها الى غرفته ليبيت ليله ، ولكنه سبقني الى القول ، فيما كان خافض الرأس يتفادى النظر الي :

ـ واعترف لك يا سميرة انني قصدت بيت عمتك مرة واحدة فقط : هي تلك التي رأيتني فيها ، فتجاهلت وجودي ...

ثم رفع الي عينيه ، فكان دوري في الاغضاء ، وسمعته يقول :

ـ ولكن حسنا فعلت يا سميرة .

ولم يزد على ذلك حرفا .

وحين نهض يودعني ، قلت له وانا لا اكاد اتمالك نفسي :

ـ سأرافقك الى الحدود ، يا ابراهيم ..

وحاول جهده ان يثنيني ، وحذرني من العودة وحدي في الليل ، ولكنه استسلم لارادتي حين لاحظ اصراري .

وسرنا عبر بيارات البرتقال ، والليل قد بدأ يهبط ، من غير ان ننبس بكلمة .

واخذت اشعر بارتجاف في ركبتي كان يتفاقم كلما اقتربنا من الحدود .

واحسست ان علي ان اتماسك واجالد حتى لا انهار.

وامسك ابراهيم فجأة بذراعي يستوقفني وهو يقول :

ـ كفى الى هنا يا سميرة ...

ونظرت الى وجهه الصارم الاسمر احدق فيه في الليل ، ثم لم اتمالك ان مددت ذراعي اضمه الى صدري ، وجعلت اشده بكل قواي ، وراحت شفتاي تقبلان عينيه وخديه وشفتيه وانا احس دمعي يسيل على وجهينا كلينا.

وحين عدت انظر اليه ، كان مغمضا عينيه ، ثم مال بوجهه فقبل شعري قبلة سريعة ، ودفعني عنه بلطف ، وانتقل يعدو نحو اسلاك الحدود ، منحني القامة .

وظللت ابكي في الليل بلا صوت ، وعيناي تحدقان في الاسلاك .

ثم استدرت نحو المدينة امشي ببطء ، احس على كتفي عبء الهزيمة كلها . ثم لمحت رابية قريبة تقوم على يمين الطريق فسرت اليها لاستشرف الحدود ، علي ان ارى شبح ابراهيم مرة اخيرة . واذ بلغتها رقيتها على مهل والتفت حولي ، فرأيت عن جانبي وتحتي اشجار البرتقال منبسطة في كل اتجاه ، وظللت انظر دقائق ؛ فأحسست ان الاشجار بدأت تنتفض بالحركة ، وان اغصانها تحولت الى رشاشات وبنادق ، وان جذوعها اصبحت عمالقة ينفضون عنهم ذل التشريد وينتصبون متطاولين ، ينتظرون ، وان علي بعد ان اجيء نحو الليل والاسلاك لاودع قوافلهم الزاحفة .

سهيل ادريس